مجلة المعيار ISSN :2588-2384
المجلّد 23 عدد: 45 السنة: 2019

تَعَاوُرُ الأَلْفَاظِ في القَصَصِ القُرآنيِّ-قصّة موسى أنموذجا-

كريم كحول
جامعة الجزائر2
Karim1985kahoul@gmail.com

تاريخ الوصول: **2018/07/26** القبول:.2019/01/02/ النشر على الخط:2019/01/05
Received :……l Accepted :……l Published online :……..

ملخّص

حاول الباحث في هذه الدراسة أن يبين سر تعاور الألفاظ في القصص القرآني؛ إذ إنّ هناك آيات كثيرة تتشابه مع آيات أخرى إلى حد التطابق وخاصة في القصة القرآنية التي تتكرر كثيرا، وهذا ما كان دافعا لمعرفة السر في ذلك بالاستعانة بأقوال المفسرين وعلماء المتشابه اللفظي، كما أراد الباحث أن يبرز دور السياق بجميع أنواعه في تفسير هذا التعاور، وأن يؤكد أن كل مفردة في القرآن جاءت في موضعها اللائق ومكانها المناسب.

الكلمات المفتاحية: تعاور – سياق – متشابه لفظي – قصص قرآني.

Substituting words in the stories of the Quran - the story of Moses model -

Summary
In this study, the researcher attempted to show the secret of substituting of the words in Quranic stories. where could be found many verses that are similar to other verses especially in the Quranic story which is frequently repeated . This motivated the researcher to look for the researcher tried to highlight the role of the context with all of its kinds in the interpretation of this substituting and to confirm that every word in the Qur'an had come in its appropriate position and suitable plac.

Key words: substituting- Context- verbal similarity- Quranic stories.

مقدمة

تعدّدت وجوه إعجاز القرآن ومظاهره، ومن ذلك أنّ فيه آياتٍ وتعبيرات تتشابه إلى حد بعيد مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلّا في مواطن ضئيلة بل قد يتعدى الأمر ذلك فيكون الاختلاف في

كلمة واحدة في تعريفها أو تنكيرها أو جمعها وإفرادها، وهذه الظاهرة أكثر ما تستوقفتنا – ونحن نقرأ القرآن الكريم– في قصص الأنبياء، حيث تتكرر القصة الواحدة عددا من المرات وفي كل مرة نجد التشابه مع اختلاف بعض الألفاظ وهذا ما دفعنا للتساؤل عن السر في ذلك وهل هذا مجرد ترادف؟ أم أن هناك أسرارا لطيفة ونكتا بديعة في هذا التعاور؟

مفهوم التّعاور

أ –التّعاور لغة :

التّعاور مصدرٌ للفعل الخماسيّ (تَعَاوَرَ)، تقول: تَعَاوَرَ يَتَعَاوَرُ تَعَاوُرًا فَهُوَ مُتَعَاوِرٌ والمفعول مُتَعَاوَرٌ، ويقال : تَعَاوَرَ القومُ فلانًا واعْتَوَرُوهُ ضربًا إذا تعاونوا عليه فكلّما كَفَّ واحدٌ ضَرَبَ واحدٌ [1] .

وقال الأزهريّ : « وَمَعْنَى تَعَاوَرَتِ الرِّيَاحُ رَسْمَ الدَّارِ: تَدَاوَلَتْهُ، فَمَرَّةً تَهُبُّ جَنُوبًا، وَمَرَّةً تَهُبُّ شَمَالاً، وَمَرَّة قَبُولاً، وَمَرَّةً دَبُوراً ... والتّعاوُرُ والاعْتِوَارُ أَنْ يَكُونَ هذَا مَكَانَ هَذَا وَهَذَا مَكانَ هذا » [2] .

و قال ابن الأثير في التّعليق على الحديث الضّعيف (يَتَعَاوَرُونَ عَلَى مِنْبَرِي) [3]: «أَيْ يَخْتَلِفُونَ وَيَتَنَاوَبُونَ، كُلَّمَا مَضَى واحِدٌ خَلَفَهُ آخَرُ » [4] .

وقال الشّهاب : « التّعاوُرُ من قولهم : تَعَاوَرَ القوم كذا واعتَوَرُوهُ إذا تَدَاوَلُوهُ وَتَنَاوَبُوهُ فَأَخَذَ هَذَا مَرَّةً وهذا أُخْرَى، والمرادُ أَنَّهُ يَقَعُ كلٌّ منهما في موقعِ الآخرِ » [1] .

([1]) ينظر: ابن فارس (أبو الحسين، 395 ه)، معجم مقاييس اللّغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، دط، 1399هـ-1979م. ج4، ص184. وابن فارس، مجمل اللغة، تح: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط2، 1406 ه - 1986م. ج1، ص636.

([2]) الأزهريّ (أبو منصور، محمّد بن أحمد، 370ه)، تهذيب اللّغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط1، 2001م. ج3، ص105.

([3]) ينظر: الألبانيّ (أبو عبد الرحمن، محمد، ناصر الدّين، 1420ه)،سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة وأثرها السيّئ في الأمّة، دار المعارف، الرياض – المملكة العربية السّعوديّة، ط1، 1412 هـ - 1992 م. ج6، ص268 .

([4]) ابن الأثير (أبو السّعادات، المبارك بن محمد، مجد الدين، 606 ه)، النّهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر أحمد الزّاوي ومحمود محمد الطناحيّ، المكتبة العلميّة، بيروت، دط، 1399ه - 1979م. ج3، ص320 .

إذًا تدورُ الدّلالة اللّغويّة للتّعاور حول ثلاثة أُمُور :

الأوّل : التّداول على الشّيء وتعاطيه وتبادله .

الثّاني : الاختلاف والتّناوب .

الثّالث : إحلال الشّيء مكان الآخر أو وقوع الشّيء موقع شيء آخر .

ب – التّعاور اصطلاحا :

قبل أن نبيّن دلالة التّعاور في الاصطلاح نشير إلى أنّ أوّل من استعمله مصطلحا بهذا المعنى الّذي نرمي إليه في هذا البحث ـ حسب اطّلاعنا ـ هو فاضل السّامرائيّ في كتابه : (بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ) [2]، حيث عقد مبحثا صغيرا وعنونه بتعاور المفردات، ثم شرح مقصوده من ذلك فقال : « قد تتعاور المفردات في التّعبير القرآنيّ فتستعمل مفردة في موطن وتستعمل غيرها في موطن آخر شبيه به، بل في القصّة الواحدة قد تستعمل مفردة في موضع وتستعمل غيرُها في موضع آخر مع أنّ القصّةَ واحدة والموقفَ واحد » [3] .

بناءً على قول السّامرائيّ واستعانةً بالمعنى اللّغويّ يمكن أن نعرّف التّعاور بما يأتي :

1 ـ تداولُ الألفاظ على التّراكيب المتشابهة أو المتماثلة .

2 ـ تناوب الألفاظ في المتشابه اللّفظيّ .

3 ـ ورود لفظ في موضع ووُرُودُ غيرِه في موضع شبيه به .

إذًا يُشْتَرَط في التّعاور أمران :

أحدهما : وجود تركيبين أو موضعين متشابهين أو متماثلين فأكثر .

والآخر : وجود لفظين فأكثر مختلفين في المعنى أو في الصّيغة .

([1]) الشهاب (أحمد بن محمد الخفاجي، شهاب الدين، 1069هـ)، حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، د تح، دار صادر، بيروت، دط، دت. ج2، ص20.

([2]) فاضل السّامرائي، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ، دار عمّار، عمان ـ الأردن، ط5، 1429 هـ ـ 2008 م .

([3]) المرجع نفسه، ص122.

ولتوضيح الأمر أكثرَ نسوق بعض الأمثلة للتّعاور في التّعبير القرآنيّ، فمن ذلك قول الله تعالى: (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) (هود: ٢٢)، وقال في موضع آخر: (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (النحل: ١٠٩)، فأنت ترى أنّ التّركيبين متشابهان لكنّه عبّر في التّركيب الأوّل بالأخسرين، وعبّر في الثّاني بالخاسرين، فمجيء (الخاسرين) مكانَ (الأخسرين) هو التّعاورُ .

ومن ذلك قول الله تعالى: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ) (الأعراف: ٧٩) ، وقال في موضع آخر: (فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ) (الأعراف: ٩٣) فعبّر في الآية الأولى برسالة، وفي الثّانية برسالات .

ولا شكّ أنّ هذا التّعاور ليس عبثا ولا تناقضا بل هو أمر مقصود قائم على الانتقاء وتخيّرِ المفرداتِ الدّقيقةِ لتأدية المعاني الدقيقة، وهذا ممّا تنبّه له علماؤنا قديما، فهذا الجاحظ يقول: « وقد يستخفّ النّاس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوعَ إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدْقِعِ والعجز الظّاهر . والناس لا يذكرون السَّغَبَ ويذكرون الجوعَ في حال القدرة والسّلامة. وكذلك ذكرُ المطر، لأنّك لا تجد القرآنَ يلفظ به إلا في موضع الانتقامِ. والعامّةُ وأكثرُ الخاصّةِ لا يفصِلونَ بيْنَ ذكرِ المطرِ وبينَ ذكرِ الغيثِ » [1] .

فالجاحظ هنا يدرك أنّ تخيّر الألفاظ الّتي تناسب المقام سمة من سمات التّعبير القرآنيّ، وخصيصة من خصائصه، وهذا ما أكّده الخطّابيُّ حين قال: « اعلم أنّ عمودَ هذه البلاغة الّتي تُجْمَعُ لها هذه الصِّفَاتُ هو وَضْعُ كُلِّ نوعٍ من الألفاظِ الّتي تشْتَمِلُ عليها فصولُ الكلامِ موضِعَهُ الأَخَصَّ الأَشْكَلَ بهِ، الّذي إذا أُبْدِلَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ جاءَ منه: إمّا تبدُّلُ المعنى الّذي يكونُ منه فسادُ الكلامِ، وإمّا ذَهَابُ الرَّونَقِ الّذي يكونُ معه سُقوطُ البلاغةِ؛ ذلك أنّ في الكلامِ ألفاظًا مُتَقَارِبةً في المعاني يحسَبُ أَكْثَرُ النَّاسِ أنَّها مُتَسَاويةٌ في إفادةِ بيانِ مرادِ الخِطَابِ ... والأمرُ فيها وفي تَرتيبِها عند علماءِ أهلِ اللّغة بخلاف ذلك؛ لأنّ

([1]) الجاحِظ (عمرو بن بحر، أبو عثمان، 255 ه)، البيان والتّبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1380ه ـ 1960 م، ج1، ص20 .

لكلٍّ لفظةٍ منها خَاصّيَّةً تتميَّزُ بها عن صاحبتِهَا في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضِها » [1].

وذهب ابن الأثير أبعد من هذا كلّه فقال: « ومن عجيب ذلك أنّك ترى لفظتين تدلّان على معنى واحدٍ، وكلاهما حسنٌ في الاستعمالِ، وهما على وزن واحد وعِدَّةٍ واحدةٍ، إلّا أنّه لا يحسُنُ استعمالُ هذه في كلِّ موضعٍ تُسْتَعْمَلُ فيه هذه، بلْ يُفرق بينهما في مواضعِ السَّبْكِ، وهذا لا يدركه إلا مَنْ دقَّ فَهْمُهُ وجلّ نَظَرُهُ » [2] .

كلّ هذه الأقوال تؤكد أنّ للتّعاور أسرارا عجيبةً، ومقاصدَ جليلةً تَنُمُّ على مسحةٍ بلاغيّة خاصّة، وطابع بيانيّ فريد، لا يترك باباً لأن يلتبس بغيره أو يشتبه بسواه، ولا يُعطي الفرصة لأحد أن يعارضه أو يحوم حول حماه [3] .

ولتسليط الضوء أكثر على هذه الظاهرة نختار مثالا من أكثر القصص ذكرا في القرآن الكريم وهي قصة موسى مع فرعون لنقف على بعض الأسرار الكامنة وراء هذا التعاور.

تعاور (حية-ثعبان-جان)

تعاورت هذه الألفاظ الثّلاثة عند ذكر عصا موسى عليه السّلام، حيث ذكر أنّها تحوّلت إلى حيّة مرّة، وإلى ثعبان مرّة ، وإلى جانّ مرّة ؛ ففي سورة الأعراف قال الله تعالى : (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ) (الأعراف: ١٠٧)، وهي الآية نفسها في سورة الشعراء: (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ) (الشعراء: ٣٢)، وقال في سورة طه: (فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) (طه: ٢٠)، وقال في سورة النّمل: (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ

([1]) الخطّابيّ (محمد بن محمد، أبو سليمان، 388 ه)، بيان إعجاز القرآن (مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح: محمد حلف الله و محمّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 1976 م، ص29 .

([2]) ابن الأثير (نصر الله بن محمد، أبو الفتح، ضياء الدين، 637ه)، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطّباعة والنّشر، بيروت، دط، 1420 ه، ج1، ص150 .

([3]) ينظر: محمّد عبد العظيم الزُّرْقانيّ، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، مصر، ط3، دت، ج1، ص90.

الْمُرْسَلُونَ) (النمل: ١٠)، ومثلها في سورة القصص : (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) (القصص: ٣١) .

وقبل أن نحاول تبيان السّر في هذه التّعبيرات المختلفة مع أنّ القصّة واحدة نبيّن مدلول كلّ لفظ في لغة العرب، وهذا بالنّظر في معاجم اللّغة وبعضِ التّفاسير .

1 – الحيَّةُ :

جاءَ في معجمِ العينِ : « والحيّةُ اشْتِقَاقُهَا مِنَ الحياةِ، ويُقَالُ: هِيَ في أَصْلِ البناءِ: حَيْوَةٌ. ولكنّ الياء والواو إذا التقتا وسُكّنت الأُولَى مِنْهُمَا جُعِلَتَا يَاءً شَدِيدَةً، ومَنْ قالَ لِصَاحِبِ الحيّاتِ: حَايٍ فَهُوَ فَاعِلٌ مِنْ هذا البنَاءِ ... ومن قال: حوّاءٌ على فَعَّالٍ فإنّه يقولُ: اشتِقَاقُ الحيّةِ مِنْ حَوَيْتُ، لأنّها تَتَحَوَّى في التِوَائِهَا » [1] .

يفهم من قول الخليل أنّ هناك خلافا في اشتقاق الحيّة، فهي إمّا من مادّة (ح ي و)، وإمّا من مادّة (ح و ي)، فمن قال: إنّها من المادّة الأولى (ح ي و)، قال إنّها مشتقّة من الحياة، ومن قال: إنّها من المادّة الثانية (ح و ي)، قال: إنّها مشتقّة من التّحوي وهو الالتواءُ.

ومذهب سيبويهِ أنّها مشتقّة من الحياة، وهذا يعني أنّها من المادّة الأولى (ح ي و)، والدّليل على ذلك أنّك تقول في النّسبة إليها حَيَويٌّ [2] .

وتطلق الحيّة على الذّكر والأنثى على السّواء [3]، " وإنّما دخلته الهاء؛ لأنّه واحد من جنس، كبَطّةٍ ودجاجةٍ، على أنَّه قد رُوي عن العرب: رأيت حَيًّا على حَيَّةٍ، أي ذكراً على أنثى " [1] .

([1])الخليل (أبو عبد الرّحمن، 170هـ): كتاب العين، ت: مهدي المخزوميّ وإبراهيم السامرائيّ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دط، دت.، ج3، ص317 .

([2]) ينظر: سيبويه (عمرو بن عثمان، أبو بشر، 180هـ)، الكتاب، تح: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط3، 1408هـ – 1988 م. ج 3، ص345.

([3]) ينظر: ابن سيده (أبو الحسن عليّ بن إسماعيل، 458 هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداويّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1421 هـ – 2000 م. ج3، ص400 .

وقد يقال للأنثى : حيّة، وللذّكر: حيّوتٌ [2].

وذكر بعض المفسّرين أن الحيّة تطلق على الصّغير والكبير على السّواء [3].

ولم ينصّ أصحاب المعاجم ـ حسب ما وقفنا عليه ـ على ذلك؛ لأنه يفهم من الإطلاق أو عدم التقييد، وإنّما فعلوا ذلك في الذكورة والأنوثة لوجود تاء التأنيث في آخرها مما قد يوهم أنها تطلق على الأنثى فحسب، فاحترازا من هذا التوهم واللبس نصوا على ذلك وعللوه . وأمّا نصّ المفسّرين على

([1]) الجوهريّ (أبو نصر، إسماعيل بن حمّاد، 393 هـ)، تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407هـ-1987م ج6، ص2324 .

([2]) الزَّبيدي(أبو الفيض، محمّد بن محمّد،مرتضى، 1205 هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، القاهرة، دط، ج37، ص518 .

([3]) ينظر: الثّعلبي (أحمد بن محمد، أبو إسحاق، 427 هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تح: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت – لبنان، ط1، 1422 هـ - 2002 م . ج6، ص242 ، والبغويّ (أَبُو مُحَمَّدٍ ، الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ، محيي السّنة، 516 هـ)، معالم التّنزيل في تفسير القرآن، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت ـ لبنان، ط1، 1420هـ. ج5، ص269، وابن الجوزيّ (أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي، جمال الدين، 597 هـ)، زاد المسير في علم التّفسير، تح: عبد الرّزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1422هـ. ج3، ص156، الرّازي (أبو عبد الله، محمد بن عمر، فخر الدين، 606 هـ)، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، د تح، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420 هـ . ج22، ص27، والبيضاويّ (أبو سعيد، عبد الله بن عمر، 685 هـ)، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، تح: محمد عبد الرّحمن المرعشليّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط1، 1418 هـ. ج4، ص25، و النَّسفيّ (أبو البركات، عبد الله بن أحمد، 710 هـ)، مدارك التّنزيل وحقائق التأويل، تح: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1، 1419 هـ - 1998 م . ج2، ص361.

إطلاقها على الصّغير والكبير وعدم الاكتفاء بإطلاق اللّفظ فناتج عن مقابلة لفظ الحيّة بلفظي الثّعبان والجانّ كما سيأتي بيانه .

يمكن تلخيص الدّلالة اللّغويّة للفظ الحيّة في ما يأتي :

1. الحيّة إمّا مشتقّة من الحياة، وذلك لطول حياتها، وإمّا مشتقّة من التّحوّي وهو الالتواء والتّجمع والاستدارة.

2 ـ الحيّة اسم جنس يطلق على الذّكر والأنثى والصّغير والكبير .

2 – الثّعبان :

الثّعبان مشتق من (ث ع ب) و" الثاء وَالْعَيْنُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى امْتِدَادِ الشَّيْءِ وَانْبِسَاطِهِ، يَكُونُ ذَلِكَ فِي مَاءٍ وَغَيْرِهِ...وَمِمَّا يَصْلُحُ حَمْلُهُ عَلَى هَذَا، الثُّعْبَانُ الْحَيَّةُ الضَّخْمُ الطَّوِيلُ؛ وَهُوَ مِنَ الْقِيَاسِ، فِي انْبِسَاطِهِ وَامْتِدَادِهِ خَلْقًا وَحَرَكَةً "[1] .

وقال ابن سيده : « الثّعبان الحيّة الضّخم الطّويل الذّكر خاصّة » [2] .

يفهم من كلام ابن فارس وابن سيده أنّ الثّعبان يتّصف بالأوصاف الآتية :

1 ـ الضّخامة والكبر والعظم .

2 ـ الطّول والامتداد والاستطالة .

3 ـ يكون ذكرا خاصّة .

3 – الجانّ :

الجان هي الحيّة البيضاء [1]، وقيل: « ضرب من الحيّات أكحل العينين يضرب إلى الصّفرة لا يؤذي، وهو في بيوت النّاس» [2] .

([1]) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ج1، ص378 .

([2]) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ج2، ص95 .

وذكر المفسّرون أنّ الجانّ هي الحيّة الصّغيرة الخفيفة الجسم، فهي ليست عظيمة، بل هي أصغر الحيّات [3] .

وقال الرّازي: « سمّيت جانّا لأنّها تتستّر عن النّاس » [4] .

يمكن تلخيص الدّلالة اللّغويّة للجانّ في أمرين :

الأوّل : الجانّ مشتقّ من جنّه بمعنى ستره، فهي جانّ لاستتارها عن أعين النّاس .

والثّاني : تتّصف الجانّ بصغر الجسم وخفّته، وهذا يلزم منه سرعة الحركة .

بعد عرض الدّلالة اللغوية لهذه الألفاظ الثّلاثة، يتّضح أنّ الحيّة جنس، والثّعبان والجانّ نوعان، فالثّعبان الحيّة الضّخم الطّويل، والجانّ الحيّة الصّغيرة الجسم الخفيفة، وبما أنّ الحيّة جنس، فهي تشمل الثّعبان والجانّ معا .

السّؤال الذي يطرح نفسه : ما سرّ اختصاص الحيّة بموطن، والثّعبانِ بموطن ثان، والجانِّ بموطن ثالث، وكلّ هذه الألفاظ تعبير عن عصا موسى عليه السّلام ؟

اختلف المفسّرون في توجيه سبب التّعبير بهذه الألفاظ الثّلاثة وبخاصّة لفظتا الثّعبان والجانّ؛ لما بينهما ـ لمن لم يتأمّل ـ من التّناقض، وأشهر توجيهين هما :

([1]) ينظر: الخليل، العين، ج6، ص21 ، والجوهري ، الصحاح، ج1، ص92 .

([2]) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ج7، ص216 .

([3]) ينظر: الماتريدي (أبو منصور، محمد بن محمد، 333 هـ)، تأويلات أهل السّنة، تح: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426 هـ - 2005 م. ج8، ص100، والثّعلبي، الكشف والبيان، ج6، ص242، والبغوي، معالم التنزيل، ج5، ص269، والنّسفي، مدارك التنزيل، ج2، ص361، والخازن (أبو الحسن، علي بن محمد، علاء الدين، 741 هـ)، لباب التّأويل في معاني التّنزيل، تح : محمّد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 هـ .ج3، ص203 .

([4]) الرّازي، مفاتيح الغيب، ج24، ص545 .

أولا : أنّها كانت جانّا في ابتداء حالها، ثمّ صارت تتورم وتتزايد حتى صارت ثعبانا، وهو إخبار عن انتهاء حالها، فأخبر في سورتي النّمل والقصص عن ابتداء الحال، وفي الأعراف والشّعراء عن المآل .

ثانيا : أنّها كانت في صورة الثّعبان وسرعة حركة الجانّ [1] .

هذان التّفسيران يدفعان التّناقض الّذي قد يبدو بين الثّعبان والجانّ؛ لأنّ تحوّل العصا حسب رأيهم هو تحوّل واحد، وهو التّحول إلى ثعبان لأنّ " موسى خافها وولى مدبرا، وموسى لا يحتمل أن يخاف من حيّة صغيرة على الوصف الّذي ذكر، فكأنّها كانت عظيمة لكنّها في تحرّكها والتوائها كأنّها صغيرة؛ إذ الحيّة العظيمة الكبيرة لا تقدر على التّحرك والالتواء كالصّغيرة؛ لذلك خافها موسى، حتّى نهاه اللّه عن ذلك " [2] .

إذا تأمّلنا هذا الرّأي سلّمنا أن انقلاب العصا إلى ثعبان يحصل به من التّهويل ما لا يحصل بغيره، ولكنّ تحوّل العصا من الهيئة المعروفة لها إلى هيئة أخرى هو في ذاته أمر خارق يستحقّ الرّهبة والفزع، وهذا يكفي لتعليل خوف موسى عليه السّلام وفزعه .

([1]) ينظر: الزّجاج (أبو إسحاق، إبراهيم بن السري، 311 هـ)، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408 هـ- 1988م. ج4، ص88. والثّعلبي، الكشف والبيان ج6، ص242. والبغويّ، معالم التنزيل، ج5، ص269، وابن الجوزيّ، زاد المسير، ج3، ص156، والرّازي، مفاتيح الغيب، ج22، ص27، والبيضاويّ، أنوار التنزيل، ج4، ص25، والخازن، لباب التأويل، ج3، ص203، المظهريّ (محمد ثناء الله، 1225هـ)، التّفسير المظهري، تح: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، الباكستان، دط، 1412هـ. ج6، ص134، والألوسي (محمود بن عبد الله، شهاب الدين، 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تح: علي عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1415هـ، ج8، ص492 .

([2]) الماتريدي، تأويلات أهل السنة، ج8، ص100 .

وقال الجرجانيّ نقلا عن بعضهم: « إنّ عصاه انقلبت مرّة ليلة البعث عند الشجرة، ومرّة عند فرعون في داره، ومرّة يوم الزينة بين يديه في عرصَاته على أعين النّاس في مقابلة السحرة، فاختلفت الأوصاف لاختلاف الأحوال » [1] .

وقال بعض المفسرين في الآية التي ذكر فيها الجانّ إن في الكلام محذوفا ترك ذكره استغناء بما ذكر عمّا حذف، وهو: فألقاها فصارت حية تهتز، فلما رآها تهتزّ كأنّها جانّ ولّى مدبرا ولم يعقّب [2] .

وإذا كان أكثر المفسّرين قد فسّر الجانّ بالحيّة الصغيرة، فإنّ هناك من فسّرها بالجانّ الّذي هو الشّيطان؛ "لأنهم يشبّهون كلّ ما استهولوه بالشّيطان" [3]، ووجه الشّبه هنا هو"هول منظرها وقبحها وبشاعتها، والهلع والتّرويع برؤيتها" [4].

قال أحد الباحثين: « جلّ التّوجيهات الّتي حفلت بها التّفاسير السّابقة تعنى بالنّظرة الجزئيّة الموضعيّة، أي يهتمّ أصحابها بالنّظر في كلّ لفظ على انفراد، ويجتهدون في المقارنة بين المعاني المعجميّة للألفاظ الّتي تواجههم وبيان الفروق في استعمالاتها، ثمّ يتمّ التّرجيح وفق الخلفيّة المعرفيّة لكلّ مفسّر، ووفق منهجه التّفسيريّ واتّجاهه العلميّ » [5] .

([1]) الجرجانيّ (أبو بكر، عبد القاهر بن عبد الرحمن، 471هـ)، دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر، تح: (الفاتحة والبقرة) وَليد بِن أحمد الحُسَيْن، (وشاركه في بقيّة الأجزاء): إياد عبد اللّطيف القيسيّ، مجلة الحكمة، بريطانيا، ط1، 1429 هـ - 2008 م. ج2، ص790 .

([2]) ينظر: الطّبري (أبو جعفر، محمد بن جرير، 310 هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمّد شاكر، مؤسّسة الرّسالة، القاهرة، ط1، 1420 هـ - 2000 م. ج19، ص430 .

([3]) الماورديّ (أبو الحسن علي بن محمد ، 450 هـ)، النّكت والعيون، تح: السيّد بن عبد المقصود بن عبد الرّحيم، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، دط، دت. ج4، ص196 .

([4]) الباقلانيّ (محمّد بن الطيب، أبو بكر، 403هـ)، الانتصار للقرآن، تح: محمّد عصام القضاة، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1422هـ- 2001 م . ج2، ص623 .

([5]) احمّد محمد صافي المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآني، عالم الكتب الحديث، أربد ـ الأردن، ط1، 1432 هـ ـ 2011 م. ص185 .

بناءً على هذا يجب تتبّع السّياق الّذي وردت فيه هذه الألفاظ لمعرفة الفروق الدّلالية بينها، فالتّعبير القرآنيّ لا يستعمل لفظة إلّا في موضعها اللّائق الّذي ينسجم مع الموقف الّذي قيلت فيه، ويتناسق مع ما جاوره من الكلمات في القصّة الواحدة أو في السّورة بأكملها .

إنّ المتتبّع للمقامات الّتي ذكرت فيها العصا بهذه الألفاظ الثّلاثة يجدها لاتخرج عن مقامين، المقام الأوّل سمّاها فيه حية، وسمّاها أيضا جانّا، مع ملاحظة اختلاف السورة؛ فالحيّة ذكرت في سورة طه، والجانّ في سورتي النّمل والقصص، أمّا المقام الثّاني فقد سمّاها فيه ثعبانا.

المقام الأوّل كان فيه الإلقاء الأوّل للعصا، وكان ذلك في طور سيناء حين نادى الله سبحانه موسى عليه السّلام، وكان هذا الإلقاء للدّربة والتّمرين والهدف منه "طمأنة موسى، حتّى إذا ما باشرها أمام فرعون باشرها وهو على يقين أنّ العصا ستستجيب له فتنقلب حيّة بمجرد إلقائها، ولو أنّ الله قال له خبراً :(إذا ذهبت إلى فرعون فألق العصا فستنقلب حيّة)، فقد لا يطمئنّ قلبه إلى هذا الأمر " [1] .

والدّليل على أنّ لفظتي (الحيّة) و(الجانّ) جاءتا في المقام نفسه السّياق الّذي وردتا فيه، ففي سورة طه قال الله تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) (طه: ٩ – ٢٠).

وقال تعالى في سورة النّمل : (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ

([1]) محمّد متولي الشعراوي ، تفسير الشّعراوي – الخواطر، مطابع أخبار اليوم، مصر، دط، 1997 م . ج7، ص4280 .

رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَامُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) (النمل: ٧ – ١٠) .

وقال في سورة القصص : (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) (القصص: ٢٩ – ٣١).

بعد ملاحظة وتأمّل هذه الآيات يمكن أن نستخرج نقاط التّشابه الآتية :

1 ـ رؤية موسى النار وهو مع أهله، واستئناسه بها، ورجاؤه أن يجد عندها من يخبره بالطريق أو من يهديه في ظلمة الليل، فإن لم يجد خبرا يأتي بجذوة أو قبس .

2 ـ نداء الله تعالى إيّاه بالوادي المقدّس طوى وهو بجانب جبل الطور، وإخباره بأنّه هو الله الّذي لاإله إلا هو.

3 ـ أمره بإلقاء العصا .

4 ـ تحوّل العصا من النباتيّة إلى الحيوانيّة .

5 ـ خوفه من العصا، ونهيه عن الخوف .

يتبيّن من هذه النّقاط الخمس أنّ سياق المقام واحد، فما السّر في اختصاص كلّ لفظ بالموضع الّذي ورد فيه ؟

عبّر سبحانه في سورة طه بلفظ الحيّة؛ لأنّه أَلْيَقُ بالجوّ العامّ لها، فهو جو أنس وطمأنينة " فلم يكن سؤال الله لموسى سؤال استعلام، لأنّ الله يعلم أنّها عصاه، وإنما سؤاله سؤال إيناس واسترواح، فالله يريد أن يشعر موسى بالأنس والرّاحة، يريد له أن تهدأ أعصابه، وأن تطمئن نفسه، وأن ترتاح

مشاعره"[1]، فلفظ الحيّة أنسب من حيث كونه اسم جنس يقع على الذّكر والأنثى والصّغير والكبير، فالتّركيز هنا منصبّ على مسألة القلب وتحوّل العصا من الحيوانيّة إلى النّباتيّة دون التّركيز على ماهيّة الحيّة .

وكلمة (حيّة) مشتقّة من الحياة " وهذا المعنى يتناسب مع الحياة السّعيدة الّتي أُنزلت سورةُ طه تبشّر الحبيب صلّى الله عليه وسلّم بها " [2] .

وعبّر سبحانه في سورتي النّمل والقصص بلفظ (الجانّ)؛ لأنّه أنسب في التّعبير عن حالة الخوف الّتي يعيشها موسى عليه السّلام، وأليق بسياقي السّورتين، فهما " محفوفان بالخوف من كلّ جانب، وملابسات الخوف في سورة القصص أكثر منها في سورة النّمل، كما أنّ لفظ (الجنّ) جاء ذكره في سياقين آخرين " [3] .

أمّا المقام الثّاني فهو المقام الّذي حدث فيه الإلقاء الثّاني للعصا وكان أمام فرعون وملئه حين حصل حوار بين موسى وفرعون، وطلب من موسى أن يأتيه بشيء مبين إن كان من الصادقين، وبيان ذلك في قوله تعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (103) وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (104) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (105) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (106) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) (الأعراف: ١٠٣ – ١١٢).

([1]) صلاح الخالدي، القصص القرآنيّ عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، ط3، 1432 هـ ـ 2011م. ج2، ص360.

([2]) امحمد محمد صافي، تصريف القول في القصص القرآني ، ص187 .

([3])امحمد محمد صافي، تصريف القول في القصص القرآني، ص188 .

وقال في سورة الشعراء: (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) (الشعراء: ١٦ – ٣٧).

وعبّر سبحانه هنا بلفظ (الثّعبان)؛ لأنّه يناسب هذا الموقف، فهو موقف تحدّ ومحاورة فاصلة بين الحق والباطل، وأمام عدو ادّعى أنّه إله، فلفظ (الثّعبان) أبلغ في التّرهيب والتّخويف؛ ذلك أنّ الثّعبان هو الضّخم الطّويل من الحيّات فيتحقّق به الغرض المنشود دون غيره من الألفاظ،" فلا ينتظم مع هذا الفعل العظيم الحيّة الّتي تسعى، أو الجانّ الدقيقة، بل الإعجاز في أنّ العصا تظهر في صورة ثعبان عظيم مرهب مبين " [1].

فإن قال قائل : إذا سلّمنا أنّ الجوّ العامّ في سورة طه هو جوّ أنس وطمأنينة نفس وراحة بال، فلا يناسبه لفظ الجانّ ولا لفظ الثّعبان، فلماذا لم يقل في سورتي القصص والنّمل (ثعبان) مع أنّه يتناسب مع الجوّ العامّ للسّورتين، وهو جوّ الخوف؟ ولمَ لم يقل في موقف التّحدي (جانّ) مع أنّه أشدّ ترهيبا من الثّعبان ؟

(1) محمد ياس خضر الدوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، أطروحةلنيل متطلبات درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية بإشراف خليل نبيان الحسون، كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد، 2005 م. ص121 ـ 122.

فالجواب على ذلك أنّ لفظ الجانّ مناسب للمقام من وجهين :

الأوّل : أنّ الموقف الّذي ذكر فيه هو موقف التّدريب والتّمرين والاستعداد لملاقاة فرعون، وهذا يناسبه الحيّة الصّغيرة .

والثّاني : أنّ عالم الجنّ مخيف للإنسان وبخاصّة إذا كان منفردا .

أمّا لفظ الثّعبان فهو يزرع الخوف أكثر من لفظ الجانّ لأنّ فيه ضخامة وطولا وقوّة، أمّا الجانّ فلا يخاف منه عادة إذا كان النّاس مجتمعين .

من هنا تتبيّن لنا دقّة التّعبير القرآنيّ في اختيار الألفاظ واستعمالها، ففي موقفين مختلفين عبر بثلاثة ألفاظ، اثنان منها في الموقف الأوّل، وثالث في الموقف الثّاني، وغاير بين لفظي الموقف الأوّل مراعاة للجوّ العامّ للسّورة الّتي وردا فيها .

خاتمة

أوّلا : التّعاور مصطلح جديد له جذور في تراثنا اللغوي، وهو باختصار " تناوب الألفاظ في المتشابه اللفظي "، وأول من استعمله بهذا المعنى – حسب ما وقفنا عليه – هو فاضل السامرائي في كتابه "بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني " .

ثانيا : القول بالتّرادف التّام للألفاظ المتعاورة ، قول لا يمكن التسليم بوجوده في القرآن الكريم، لأن كثيرا من الألفاظ التي قد تبدو مترادفة تتقاطع في الدلالة العامة فقط، وإذا أمعنا النظر فيها وجدناها تنفرد بدلالات خاصة.

ثالثا: القول بالترادف يجعل تعاور الألفاظ وتبادلها للمواضع دون فائدة أو قصد أو معنى، وهذا مما لا يجوز حمل كتاب الله المعجز عليه .

رابعا: التأكيد على أن اللفظ القرآني جاء بأبلغ صورة، حيث جاءت كل مفردة في موضعها اللائق، ومكانها الملائم .

خامسا : يعد السّياق أبرز حكم في توجيه تعاور الألفاظ؛ لأن كل لفظ في القرآن الكريم وضع حسب ما يقتضيه السياق، وهذا الوضع إما أن يكون متعلقا بالسياق القبلي للآية، وإما أن يكون متعلقا بالسياق البعدي .

سادسا : السياق وحده قد لا يكفي لتعليل التعاور في التعبير القرآني بل يجب النظر في أمور أخرى كالجو العام للسورة أو السور التي ورد فيها ، وهذا ما رأيناه في تعاور (حية – ثعبان – جان) .

سابعا : التأكيد على نضج الفكر اللغويّ عند علمائنا، وتمكنهم من آليات التحليل والتأويل اللغوي، وقدرتهم اللغوية الواسعة التي مكنتهم من استنطاق النصوص، وفك مغلقها بآليات يدعي علم اللغة الحديث أنه السّبّاق إليها .

قائمة المصادر والمراجع

أ-الكتب

- ابن الأثير (أبو السّعادات، المبارك بن محمد، مجد الدين، 606 هـ)، النّهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر أحمد الزّاوي ومحمود محمد الطناحيّ، المكتبة العلميّة، بيروت، دط، 1399هـ - 1979م.
-ابن الأثير (نصر الله بن محمد، أبو الفتح، ضياء الدين، 637هـ) ، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطّباعة والنّشر، بيروت، دط، 1420 هـ.
-الأزهريّ (أبو منصور، محمّد بن أحمد، 370هـ)، تهذيب اللّغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط1، 2001م.
-الألبانيّ (أبو عبد الرحمن، محمد، ناصر الدّين، 1420هـ)،سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة وأثرها السيّئ في الأمّة، دار المعارف، الرياض - الممكلة العربية السّعوديّة، ط1، 1412 هـ - 1992 م.
- الألوسي (محمود بن عبد الله، شهاب الدين، 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تح: علي عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1415هـ.

- امحمّد محمد صافي المستغانمي، تصريف القول في القصص القرآني، عالم الكتب الحديث، أربد ـ الأردن، ط1، 1432 هـ ـ 2011 م.

-الباقلانيّ (محمّد بن الطيب، أبو بكر، 403هـ)، الانتصار للقرآن، تح: محمّد عصام القضاة، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1422هـ- 2001 م .

- البغويّ (أَبُو مُحَمَّدٍ ، الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ، محيي السّنة، 516 هـ)، معالم التّنزيل في تفسير القرآن، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت ـ لبنان، ط1، 1420هـ.

-البيضاويّ (أبو سعيد، عبد الله بن عمر، ناصر الدّين، 685 هـ)، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، تح: محمد عبد الرّحمن المرعشليّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط1، 1418هـ.

- الثّعلبي (أحمد بن محمد، أبو إسحاق، 427 هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تح: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت – لبنان، ط1، 1422 هـ - 2002 م .

- الجاحِظ (عمرو بن بحر، أبو عثمان، 255 هـ)، البيان والتّبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1380هـ ـ 1960 م.

- الجرجانيّ (أبو بكر، عبد القاهر بن عبد الرحمن، 471هـ)، دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر، تح: (الفاتحة والبقرة) وَليد بِن أحمد الحُسَيْن، (وشاركه في بقيّة الأجزاء): إياد عبد اللّطيف القيسيّ، مجلة الحكمة، بريطانيا، ط1، 1429 هـ - 2008 م.

- ابن الجوزيّ (أبو الفرج، عبد الرحمن بن علي، جمال الدين، 597 هـ)، زاد المسير في علم التّفسير، تح: عبد الرّزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1 - 1422هـ.

- الجوهريّ (أبو نصر، إسماعيل بن حمّاد، 393 هـ)، تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4،1407 هـ - 1987 م .

-الخازن (أبو الحسن، علي بن محمد، علاء الدين، 741 هـ)، لباب التّأويل في معاني التّنزيل، تح : محمّد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 هـ .

- الخطّابيّ (محمد بن محمد، أبو سليمان، 388 ه)، بيان إعجاز القرآن (مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح: محمد حلف الله و محمّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 1976 م.
- الخليل (أبو عبد الرّحمن، 170ه): كتاب العين، ت: مهدي المخزوميّ وإبراهيم السامرائيّ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دط، دت.
-الرّازي (أبو عبد الله، محمد بن عمر، فخر الدين، 606 ه)، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، د تح، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420 ه .
- الزَّبيدي (أبو الفيض، محمّد بن محمّد،مرتضى، 1205 ه)، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، القاهرة، دط، دت.
- الزّجاج (أبو إسحاق، إبراهيم بن السري، 311 ه)، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408 ه- 1988م.
- سيبويه (عمرو بن عثمان، أبو بشر، 180ه)، الكتاب، تح: عبد السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط3، 1408ه - 1988 م.
- ابن سيده (أبو الحسن عليّ بن إسماعيل، 458 ه)، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداويّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1421 ه - 2000 م.
- صلاح الخالدي، القصص القرآنيّ عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشق، ط3، 1432 ه ـ 2011م.
- الشهاب (أحمد بن محمد الخفاجي، شهاب الدين، 1069ه)، حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، د تح، دار صادر، بيروت، دط، دت.
- الطّبري (أبو جعفر، محمد بن جرير، 310 ه)، جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمّد شاكر، مؤسّسة الرّسالة، القاهرة، ط1، 1420 ه - 2000 م.

-ابن فارس (أبو الحسين، 395 هـ)، ، مجمل اللغة، تح: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط2، 1406 هـ - 1986م.

- ابن فارس (أبو الحسين، 395 هـ)، معجم مقاييس اللّغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، دط، 1399هـ- 1979م.

- فاضل السّامرائي، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ، دار عمّار، عمان ـ الأردن، ط5، 1429 هـ ـ 2008 م .

- الماتريدي (أبو منصور، محمد بن محمد، 333 هـ)، تأويلات أهل السّنة، تح: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426 هـ - 2005 م.

-الماورديّ (أبو الحسن علي بن محمد ، 450 هـ)، النّكت والعيون، تح: السيّد بن عبد المقصود بن عبد الرّحيم، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، دط، دت.

- محمّد عبد العظيم الزُّرْقانيّ، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، مصر، ط3، دت.

-محمّد متولي الشعراوي ، تفسير الشّعراوي – الخواطر، مطابع أخبار اليوم، مصر، دط، 1997م.

-المظهريّ (محمد ثناء الله، 1225هـ)، التّفسير المظهري، تح: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، الباكستان، دط، 1412هـ.

- النَّسفيّ (أبو البركات، عبد الله بن أحمد، 710 هـ)، مدارك التّنزيل وحقائق التأويل، تح: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1، 1419 هـ - 1998 م .

ب-الرسائل الجامعية

- محمد ياس خضر الدوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، أطروحة لنيل متطلبات درجة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية بإشراف خليل نبيان الحسون، كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد، 2005 م.